جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
السنة الثالثة

مقرر تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر
(المحاضرة الثانية)
أ.د. أحمد الخضر– د. محمد الحجي

كشف القارة الإفريقية

أولاً– دوافع الأوروبيين لكشف القارة الإفريقية:

اقتصرت العلاقات الأوربية مع القارة الإفريقية حتى منتصف القرن الخامس عشر على ساحلها الشمالي، لعدة أسباب أهمها جهل الأوروبيين بالقارة الإفريقية جغرافيا وبشرياً، وبالمحيطات التي تحيط بها، وعدم توفر الوسائل اللازمة للملاحة فيها، إضافة إلى أن معلوماتهم عن القارة الإفريقية كان يشوبها الكثير من القصص الخرافية. وكان بداية الاحتكاك المباشر بين أوروبا وإفريقية على يد الأمير هنري الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠)، أحد أولاد الملك البرتغالي يوحنا الأول (١٣٨٥-١٤٣٢)، حيث غدا هنري أبرز وجه في تاريخ حقبة الكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر. وتحت تأثير العوامل الدينية، والاقتصادية، والفكرية، وتحت ضغط النبلاء الصغار والفلاحين والتجار، اندفع الملك في سياسة توسع وكشف لسواحل إفريقيا.

وفي أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر بدأ التوجه الأوربي نحو الكشوف الجغرافية مدفوعاً بعدة عوامل يمكن إجمالها بالنقاط التالية:

الدوافع الفكرية:

أخذت أوروبا منذ القرن الثالث عشر تستيقظ من سبات العصور الوسطى الفكري، وبدأت تتحرر تدريجياً من المعتقدات الوهمية والخرافية، ولاسيما في ميدان المعرفة الكونية، فقد نسي الأوربيون خلال العصور الوسطى علم اليونان القائل بكروية الأرض، وسيطرت على فكرهم الخرافات حتى تخيلوا أن المحيط الأطلسي يكتنفه الظلام الدامس، وأن المياه في جنوبه تشتد حرارتها حتى تصل لدرجة الغليان ثم تسقط في هوة كبيرة.

إلا أن احتكاك أوروبا بالإنتاج الفكري العربي الإسلامي بدد تلك الجهالات، ولاسيما بما قدمه العرب في ميدان علم الفلك، والجغرافية، سواء أكان إنتاجاً ذاتيا كمؤلفات المقدسي وياقوت الحموي والبيروني، أو كان ترجمة للكتب اليونانية القديم الكبرى وأشهرها المجسطي لبطليموس.

وهكذا ارتد الأوروبيون إلى الأفكار القديمة عن كروية الأرض، وظهرت ملامح نهضة جغرافية، كانت العون الأكبر لحركة الكشوف الجغرافية في تقدمها. وقد ساعد هذه النهضة الجغرافية، بالإضافة إلى أخذ المعرفة العربية في هذا الميدان، ما قدمته البرتغال في شخص أميرها هنري الملاح للمعرفة الجغرافية من خدمات ومن أهمها إنشاء مركز للدراسات الجغرافية، ولرسم الخرائط، وإرسال بعثة بحرية كل عام إلى الجنوب كانت تعود وقد ازدادت معرفة بسواحل إفريقيا فتعمل على إنشاء تلك الخرائط المصورة. وقد عمد إلى ترجمة كتاب بطليموس عام ١٤٠٩ إلى اللغة اللاتينية.

وفي هذا المجال يجب ألا ننسى حركة الترجمة الواسعة التي ابتدأها عدد من المفكرين الأوروبيين، والجامعات، منذ القرن الثالث عشر، واستمرت خلال القرون التي تلت، وكانت تتوخى نقل أمهات الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وما ترجمه العرب من المؤلفات القديمة، وقد ساعد على انتشار الترجمة و الكتب المؤلفة حديثاً، اختراع الطباعة وانتشارها في معظم أنحاء أوروبا ولاسيما في إيطاليا، والبندقية منها بالذات.

الدوافع الاقتصادية:

وهي من أهم العوامل الدافعة، فقد كانت أوروبا في القرن الخامس تشكو من ندرة المعادن الثمينة لديها، ومن ثم قلة النقد المتداول، مما أعاق التجارة الأوربية، وخلق بلبلة في الأمور النقدية. ويرجع ذلك إلى نضوب مناجم الفضة في أوروبا، وانقطاع وصول الذهب من السودان عبر إفريقيا الشمالية إلا بكميات ضئيلة.

فرأت أوروبا أن تبحث عن تلك المعادن في إفريقيا، ومن ناحية أخرى، فإن أوروبا كانت بحاجة إلى التوابل التي تنتجها الدول الآسيوية والتي كانت تأتيها على سفن عربية، والتي كانت تصل إلى الموانئ العربية حيث يشتريها البنادقة ويقومون بتوزيعها قي أوروبا. وكان المماليك في سورية ومصر يتقاضون أثماناً عالية لها من البنادقة، مما يجعلهم، أي البنادقة، يبيعونها في أوروبا بأسعار فادحة. وأمام هذا رأت أوروبا أن تصل إلى البلاد المنتجة للتوابل مباشرة، بالالتفاف حول إفريقيا، أو بالتوجه في المحيط الأطلسي غرباً ، وذلك لتحصل على حاجتها دون الوسيط العربي المملوكي، والاحتكار البندقي.

يضاف إلى ذلك الاتجاه القومي الاقتصادي للحصول على المال اللازم لبناء كيانها السياسي والعسكري.

الدوافع الدينية:

تتلخص في متابعة أوروبا حربها الصليبية ضد المسلمين، على الرغم من أن تلك الحروب التي بدأتها إسبانيا (حرب الاسترداد) والحملات الصليبية على المشرق والمغرب الإسلامي، قد شارفت على نهايتها في ظاهرها، فإن الروح التي تولدت من ذلك الصراع الدموي العنيف كانت روحاً تزمتية انتقامية عند بعض الملوك والأمراء. وأرادوا مطاردة العرب المسلمين ومهاجمتهم في عقر دارهم، وانتزاع ما يملكون من خيرات ومكاسب اقتصادية.

ولتحقيق ذلك فإنهم شرعوا يبحثون عن ذلك البلد المسيحي الواقع على طريق التوابل، والذي قيل لهم أنه قريب من أرض المسلمين ويحكمه الراهب يوحنا، حتى يتحدوا معه في حربهم ضد الإسلام، ومن المحتمل أن يكون هذا البلد هو الحبشة.

ومن جهة أخرى رغبة الأوربيين كشف مناطق تبشيرية جديدة في إفريقية، وزيادة عدد المؤمنين بالمسيحية.

عوامل تقنية:

ما كان بوسع الأوربيين الانطلاق في المحيطات، لولا التقدم الذي أحرزه علم الملاحة في القرن الخامس عشر، ولاسيما بعد اكتشاف السفن القشتالية الخفيفة والمرتفعة ، كما اكتشفت دفة القيادة المحورية، والتي ساعدت بقوة عملها على زيادة أبعاد السفن.

وفي الوقت نفسه، فإن تطور البوصلة والإسطرلاب العربي، أدى إلى تطور تقنيات الاتجاه مما ساعد على الابتعاد عن الشواطئ، وشق عباب البحار المجهولة.

الدوافع السياسية:

تمكن العثمانيون بعد احتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣، من بسط سيطرتهم على شرقي المتوسط، وإغلاق الطرق الموصلة إلى الشرق الأقصى وخيراته بوجه أوروبا، كما أن العثمانيين بتوسعهم في شرقي أوروبا، أصبحوا يشكلون خطراً على الكيانات السياسية الجديدة التي قامت في أوروبا نتيجة نمو مفهوم الدولة القومية فيها في القرن الخامس عشر. وبناءاً على ذلك يمكن القول أن اندفاع أوروبا نحو المغامرات الاستكشافية كان لها هدفان:

١- تطويق القوة الإسلامية الجديدة الناهضة ممثلة بالدولة العثمانية وضربها من الخلف والقضاء عليها.

٢- تثبيت الوجود القومي للكيانات السياسية الناشئة ودعم اقتصادها وتحقيق نفوذها السياسي على أكبر رقعة من الممتلكات في أوروبا وخارجها.

وقد امتزجت الدوافع السياسية بالدينية والاقتصادية، مزجاً، غدا من الصعب الفصل بينها فصلاً كاملاً. فاحتلال العثمانيين لمدينة القسطنطينية هز أوروبا دينياً، إذ سقطت عاصمة المسيحية الشرقية أخيراً بيد الإسلام، بعد أن وقفت صامدة لأكثر من ثمانية قرون. وهزها سياسياً، لأنها لم تكن قد أبعدت الخطر الإسلامي في إسبانيا وشمال إفريقيا حتى نفذ إليها الخطر مرة ثانية من الشرق، وبشكل كاسح ومخيف، مهدداً كياناتها السياسية الجديدة. وهزها اقتصادياً، لأن الأتراك العثمانيين باحتلالهم القسطنطينية، وسيطرتهم التدريجية على شرقي المتوسط، أغلقوا في وجه أوروبا الطرق الموصلة إلى الشرق الأقصى وخيراته.

فبحث أوروبا عن طريق جديدة تحملها إلى الشرق الأقصى، لم يكن هدفه اقتصاديا ودينيا فحسب، وإنما القضاء سياسياً أيضاً على القوة الإسلامية الناهضة من جديد.

ثانياً- مراحل كشف القارة الإفريقية:

مرَّ الكشف الأوربي للقارة الإفريقية بثلاثة مراحل :

١- مرحلة كشف سواحل القارة والجزر القريبة منها (١٤١٥-١٧٦٨)

٢- مرحلة الكشف العلمي للقارة (١٧٦٨-١٨٨٤)

٣- مرحلة الكشف السياسي للقارة (١٨٨٤-١٩١٤)

١- مرحلة كشف سواحل القارة والجزر القريبة منها (١٤١٥-١٧٦٨)

تبدأ هذه المرحلة من احتلال البرتغاليين لمدينة سبته المغربية عام ١٤١٥، وتنتهي مع بدء رحلات **جيمس بروس** لكشف منابع النيل عام ١٧٦٨م.

واقتصرت معرفة الأوروبيون في هذه المرحلة على سواحل القارة وبعض الجز القريبة منها، ودورانهم مروراً برأس الرجاء الصالح. حيث أسسوا سلسلة من المستعمرات والحصون والمحطات البحرية، والتي استخدموها كمحطات لخدمة طرق المواصلات المؤدية إلى الهند والعالم الجديد، ثم كمراكز لتجميع الرقيق قبل نقلهم إلى العالم الجديد للعمل في المزارع والمناجم.

وتعدُّ هذه المرحلة هامشية، بسبب اقتصار عمليات الكشف فيها على السواحل وعدّ القارة مصدراً للرقيق، واكتفاء الأوروبيين بجمع بعض المعلومات عن القارة.

٢- مرحلة الكشف العلمي للقارة (١٧٦٨-١٨٨٤)

يقصد بالكشف العلمي، الكشف المنهجي والمنظم للقارة الإفريقية، بهدف التعرف على جغرافيتها الطبيعية الاقتصادية والبشرية. فحتى أواخر القرن الثامن عشر ظل عالم القارة غامضاً بالنسبة لأوروبا، ومنذ مطلع القرن التاسع عشر تركزَّ الاهتمام الأوربي على الكشف العلمي للقارة:

أ- أسباب حركة الكشف العلمي للقارة:

١- فقدان الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة

منذ أواخر القرن الثامن عشر، أخذت الإمبراطوريات الإسبانية والبرتغالية في أمريكا الوسطى والجنوبية، تفقد مستعمراتها، فبدءاً من العام ١٧٨٩ أخذت هذه الإمبراطوريات بالانهيار، كما فقدت فرنسا مستعمراتها الكندية ومستعمراتها في أمريكا الشمالية، وبدأت بريطانيا تعاني من نتائج حرب الاستقلال الأمريكية والتي حرمتها أفضل ممتلكاتها الاستعمارية.

وكي تحافظ هذه الدول على تقاليدها التوسعية ومكانتها اتجهت أنظارها نحو القارة الإفريقية، التي كانت معظم أراضيها لايزال خارج نفوذها.

٢- القضاء على نظام الرق في القارة الإفريقية وفرض التجارة المشروعة

لم تنجح القوانين التي أقرتها الدول الاستعمارية، في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بمنع تجار النخاسة من الاستمرار في تجارتهم، لذلك لجأت هذه الدول إلى التوغل في القارة لوقف هذا النزيف البشري، وللتعرف على هذه المجتمعات وإرغام حكامها على التخلي عن هذه التجارة واستبدالها بتجارة مشروعة مع أوروبا، إضافة إلى فتح أسواق أوربية جديدة، لتصريف صناعتها المتزايدة.

٣- يقظة العواطف الدينية وإحياء حركة التبشير

مع بدايات القرن التاسع عشر، شهدت المجتمعات الأوربية الغربية يقظة العواطف الدينية، ومن ثم التأكيد على واجب التبشير بالدين المسيحي. فكانت هذه اليقظة الدينية وراء إحياء حركة التبشير في إفريقيا، وخاصة في المناطق التي لم تعرف الديانة المسيحية. ويدل على ذلك كثرة الرحالة المبشرين الذين شاركوا في الحملات ومن أشهرهم المبشر لفنجسنون وزوجته وابنه.

٤- يقظة الفضول الجغرافي الأوروبي

منذ بداية القرن التاسع عشر، ظهرت في أوروبا نهضة جغرافية تمثلت بكتابات ***الكسندر هنبول، وكارل ريتر***، والتي نسفت معلومات القرنين السابع والثامن عشر. حيث سعى هنبول إلى كشف التأثير المتبادل بين الظواهر الطبيعية، وتفرد كل جزء منها عن غيره، في حين وضع ريتر أسس قوانين الجغرافية البشرية. وهكذا وجد الرحالة أنفسهم مزودين بالمعرفة اللازمة عن إفريقيا قبل اندفاعهم للتوغل في القارة.

٣- مرحلة الكشف السياسي للقارة (١٨٨٤-١٩١٤)

يمكننا أن نعرّف الكشف السياسي، بأنه كشف مختلف أقاليم القارة بهدف فرض الدول الأوروبية الاستعمارية سيطرتها على شعوب القارة ومجتمعاتها، وإخضاعها لسلطتها الإدارية، وسلبها رموز السيادة بما فيها حق تقرير المصير.

وتمتد هذه المرحلة من مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥) إلى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤. حيث عمت الرحلات الكشفية للقارة للوصول إلى مناطق جديدة لم تكتشف، وتوقيع المعاهدات مع ملوك وزعماء وقادة المجتمعات الإفريقية، وأصبح هناك تخصص في الرحلات الكشفية كلٌّ في منطقته، حيث اكتشف الرحالة الفرنسيون مناطق النفوذ الفرنسي، والألمان مناطق النفوذ الألماني، وهكذا...، ومع نهاية هذه المرحلة استطاع الأوربيون اكتشاف معظم أقاليم القارة، وبدأت كل دولة مستعمرة بنهب خيرات مستعمراتها.

ب- مراحل الكشف العلمي للقارة:

كان هدف الرحالة تقديم حل جزئي لإحدى المسائل الجغرافية الكبرى للقارة، حيث أعّدت خلال القرن التاسع عشر خطط وطرائق للكشف شكّلت بمجموعها ما يمكن أن يطلق عليه اسم إستراتجية الكشف. ومرَّ الكشف العلمي بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى(١٧٦٨-١٨٠٦)

اهتم الرحّالة خلالها بكشف الصحراء الكبرى وبلاد السودان بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، وتركزت جهودهم على محاولة الوصول إلى منابع نهر النيل، وأشهر رحالة هذه المرحلة:

- **البريطاني جيمس بروس**: الذي سعى إلى كشف منابع النيل(١٧٦٨-١٧٧٢)، وكانت أهم نتائج رحلته ١-إلقاء الضوء على أحوال الحبشة ونظامها السياسي والاجتماعي، وعادات السكان، وتقديم وصف لمناظرها الطبيعية. ٢- نقل صورة حية عن حياة سكان الممالك التي زارها مثل سنار والغونج. ٣-كشف منابع نهر النيل الأزرق.
- **البريطاني منجو بارك**: وقام برحلتين (١٧٩٥-١٧٩٧، ١٨٠٥-١٨٠٦)، وكان أول أوروبي يصل إلى نهر النيجر عند مدينة سيجو، وبرهن على أن النهر يجري إلى الشرق، بينما نهر غامبيا إلى الغرب. وأصبح واضحاً أن نهر النيجر والسنغال وغامبيا، ليست متصلة فيما بينها. حيث مهد بروس وبارك السبيل أمام الرحالة الأوربيين الذين جاؤوا بعدهما لحل مسألة منابع النيل.

المرحلة الثانية (١٨١٥-١٨٤٩)

تركزت الجهود على حلّ لغز نهر النيجر، وشمل نشاط الرحالة مناطق شمال إفريقية وإقليمي السودان الغربي والأوسط. وأمكن في هذه المرحلة كشف بحيرة تشاد ونهر الشاري وشمالي نيجيرية، وعدد من المدن والطرق الصحراوية. وكان من أشهر رحّالة هذه المرحلة لينج، وكلابيرتون، وريتشارد لاندر، ورينيه كاييه.

المرحلة الثالثة (١٨٥٠-١٨٨٤)

شمل نشاط الرحّالة جميع مناطق القارة، وتمكنوا من كشف منابع نهر النيل، وحوض نهر الكونغو وفروعه، وحوض نهر الزمبيزي، والصحراء الكبرى. حيث قدّم الرحّالة وصفاً دقيقاً للمناطق التي زاروها (حياة السكان وعاداتهم وتقاليدهم مع المحاصيل الطبيعية الموجودة). ومن أشهر الرحالة البريطاني لفنجستون في إفريقيا الجنوبية والشرقية، والألماني هنري بارث في بلاد السودان والصحراء الكبرى، والفرنسي دي برازا في إفريقيا الوسطى أيضاً.

*- وتجدر الإشارة إلى أن مراحل الكشف العلمي للقارة أدت إلى تراكم المعلومات والمعارف حول القارة، وأزالت الكثير من الغموض الذي أحاط بها ولفتت أنظار الحكومات والتجّار الأوربيين إلى قيمة إفريقيا الاقتصادية، وأثارت أطماعهم الاستعمارية. فتحولت حركة الكشف وكشفت عن أهدافها الحقيقية وهي الكشف السياسي، حيث بدأت الهجمة الاستعمارية منذ عام ١٨٨٥ على القارة، وبدأ معها التسابق المسعور إلى كشف ما لم يتم كشفه من القارة وفرض السيطرة عليها.

ثالثاً– أسباب تأخر الأوربيين في كشف القارة الإفريقية

١– سياسة الأوروبيين اتجاه إفريقية:

انحصر الاهتمام الأوربي البحري، حتى القرن التاسع عشر، بالمرتبة الأولى على الشرق (الهند وجزر الهند الشرقية)، والعالم الجديد، وبشكل ثانوي على القارة الإفريقية وذلك بسبب سهولة التوغل في تلك المناطق حيث الطبيعة أقل قساوة والسكان أقل عداوة والثروات الكثيرة، إضافة إلى الجهل الأوربي بثروات القارة الإفريقية الحقيقية. لذلك رأى الأوروبيون في إفريقيا محطة على الطرق البحرية الواصلة للشرق والعلم الجديد، إضافة إلى كونها مصدراً للعبيد الذين شكلوا الطبقة العاملة في العالم الجديد.

٢– قيام أفارقة السواحل أنفسهم بدور الوسطاء التجاريين:

بين الأفارقة في الداخل والوكالات التجارية الأوربية، مما ثبط همم الأوربيين على التوسع في الداخل، ولاسيما أن التوغل يحمل الكثير من المخاطر

٣– المقاومة الإفريقية:

حيث أدى عداء الأفارقة للمستعمرين الأوربيين، ومقاومتهم العنيدة لهم إلى فشل معظم محاولات الأوربيين الأولى للتوغل إلى داخل القارة

٤– العوامل الطبيعية:

وهي تمثل ببساطة طول الساحل الإفريقي مقارنة بمساحة القارة، إضافة إلى طبيعة تضاريس القارة، وقلّة الموانئ الطبيعية فيها، وصعوبة الملاحة في أنهارها بسبب كثرة المستنقعات والمساقط المائية.

٥– قسوة المناخ الإفريقي المداري:

تميز مناخ القارة بشدة الحرارة وارتفاع نسبة الرطوبة، وتعدد الأمراض الفتاكة في الكثير من جهاتها. فقد ظلت حتى فترة قصيرة تعرف باسم **مقبرة الرجل الأبيض** ولم يستطع الأوربيون الاستقرار في القارة إلا بعد اكتشاف المضادات الحيوية.

٦– تحكّم دول إسلامية ببعض مناطق القارة(شمالها وشرقها):

حيث بقيت سداً منيعاً في وجه محاولات الأوربيين للتوغل إلى داخل القارة.